

## الحيوان في إحساس الشاعر الجاهلي

المدرس المساعد

ضياء علي عبد الرضا

جامعة البصرة - كلية الآداب

### ملخص البحث

تناول البحث دراسة في إحساس الشاعر الجاهلي بالحيوان أليفه ووحشيه ، فتبين بعد التأمل في بعض النصوص الشعرية ان الشاعر الجاهلي دقيق الملاحظة في الحيوان وقد رأيت ذلك واضحاً في تعبيره عن إحساسه بالحيوان مرة وتعبيره عن إحساسات الحيوان مرة اخرى ، كما في حديثه عن الفرس والناقة الأليفين وحديثه عن الذئب الذي يرى فيه معادلاً موضوعياً حاول الشاعر ان يوظف معاناة الذئب للدلالة الرمزية على معاناته الشخصية كما فعل لبيد في حديثه عن الثور والبقرة والوحشيين والشنفرى في حديثه عن الذئب ، وهكذا وجدتُ الشاعر الجاهلي مرهف الإحساس ودقيق النظر الى الحيوان الذي يعيش معه ويلزمه في حله وترحاله .

### Abstract

This paper studies the pre-Islamic poet's feeling of animal as domestic and wild. After meditation in some poetic texts , it has become clear that the pre- Islamic poet was keen in his observation of animal. We saw that very evident in his expression about his feeling of animal one time and another time about the feelings of the animal of itself as in his account about horse and camel as two domestic animals. In his expressive example of the wolf, the poet finds this animal as an objective correlative.

The pre- Islamic poet Tried to use the sufferings of the wolf as a reference to his personal suffering.

A clear example of that is what the pre- Islamic poet, Labeed, said about OX and cow as two wild animals and shanfra in his account of wolf as well . Thus , we saw the pre- Islamic poet sensitive and strong – sighted to the animal with which the poet lived and accompanied in his stay and travel.

**المقدمة :**

الحمد لله كما ينبغي ان يحمد وصلى الله على رسوله وحببيه محمد وعلى اهل بيته القرآن  
المقيد ، اما بعد :

فإن من التكريم الالهي للإنسان ان جعله سيداً على كل شيء بما اودع فيه من ملكة  
الاحساس والتفكير والتعبير ثم دعاه الى التدبر بخلقه - جل وعلا - وبديع صنعه ليكون ذلك وسيلة  
للاعتراف بعظيم فضله والتعريف بنعمه وشكرها . وبذلك يرقى بالمنزلة الرفيعة وينال شرف  
السيادة على جميع المخلوقات.

ومما لا يخفى على الباحث المتأمل في الشعر الجاهلي ان هناك بعض الومضات الانسانية  
المذكّرة ببعض الخصال الاسلامية تلقاها مبنوثة في ابيات بل في قصائد كثيرة وجدير بالباحثين  
اليوم ان يشيروا اليها ويذكروا بها ، وكلن لا بد من الاشارة اليها والتذكير بها من باب الوفاء لهذا  
التراث الجاهلي الغني بالعتاء الانساني .

فجاء هذا البحث تعريفاً وتذكيراً بإحساس الانسان الجاهلي بالطبيعة الحية عن طريق  
التأمل في بعض النصوص الشعرية التي ترجم فيها الشاعر الجاهلي احساسه المرهف بحيوانه اليه  
ووحشيه معاً . وكان اهتمامه بالناقة والفرس والذئب وغيرها اهتماماً ملحوظاً وتعبيره تعبيراً دقيقاً  
وأميناً حرص فيه على استجلاء مواطن الجمال في اشياته التي هي معه في حله وترحاله ولها عليه  
حق المعاشرة المغفول عنه هذه الايام . فعبر عن احساسه بالناقة والفرس وعرف بفضلها عليه  
لانهما سبب معاشه وشريكان حياته وكان لا بد ان يعبر عن احساسه بهما ، ولكن العجب تعبيره عن  
احساسه بالذئب فاذا كانت الناقة والفرس معه ويراهما ضرورة من ضرورات حياته فما سر  
احساسه المرهف وتعبيره الدقيق الامين عنه بالذئب ذلك الحيوان الوحشي المفترس بل وما سر  
اطناب الحديث عنه واستجلاء معاني الخير والجمال في هذا الحيوان ؟ هذا ما سوف يجيب عنه هذا  
البحث الصغير في صفحاته القليلة القادمة .

**أولاً - الإحساس بالناقة:**

استأثر الحيوان بوجدان الشاعر الجاهلي وتحدث عنه كثيراً في شعره فوقف على مظهره  
الخارجي متأملاً بديع خلقته واصفاً إياه وصفاً دقيقاً ولا يكاد في وصفه يغادر صغيرةً ولا كبيرةً حتى

يحصيها ويعدها عدا . ولعل نظرةً واحدةً في ما قيل في وصف الناقاة - مثلاً- والتفصيل في خلقها وخلقها تدلنا على ما يستحق النظر والاعتبار والتأمل بعجائب صنع الله - سبحانه وتعالى - حتى إذا فرغ من وصفها الخارجي انتقل ليصور المواقف النفسية والوجدانية الملمة بها من خوف وجزع وحنين وهوى وغير ذلك مما يتصل بعالمها الداخلي والوجداني. ويستوي في ذلك الناقاة وغير الناقاة حتى يشمل كل ما يقع عليه بصره من حيوان بيئته فأليفه ووحشيه سواء في التعبير وعمق التصوير. وفي كلِّ ينم التعبير عن صدق إحساس وحرارة عاطفة وتكشف عن تفاعل الشاعر بأشياءه الملازمة له في حله وترحاله . اما الناقاة فلا يقل حضورها الوجداني عن حضورها المكاني عند الشاعر الجاهلي وقد احتلت المساحة العريضة من اهتمامه وبلغت شأواً يكاد يمنحها حق القداسة فلطالما أقسم بها الشاعر وعبر عن عظيم تأثيرها في حياته حتى راح يدخل عالمها الداخلي ويترجم ما فيه من أسرار في دقة وتركيز وعمق . ولم يدع شيئاً من عواطفها الا وعبر عنه في شعره . ففي التعبير عن شكواها يقول المثقب العبيدي<sup>(١)</sup> .

إذا ما قمتُ أرخلها بليل  
تقول إذا ما درأت لها وضيئي  
أكل الدهر حل وارتحال  
وفي جزعها يقول المتلمس<sup>(٢)</sup> :

وتكاد من جزع يطير فؤادها      إن صاح مكاء الضحى متنكسُ

ويفسها طرفة بالحدة والذكاء فيقول<sup>(٣)</sup> :

وأروع نباض أخذ مللم      كمرداة صخر من صفيح مصدِّ

وتشارك الناقاة صاحبها في كثير من عواطفه فتفرح لفرحه وتحزن لحزنه وتتبادل المشاعر معه وكأنها تصدر عن فهم ووعي لما يجري على صاحبها ( فالمشاركة الوجدانية لما يقع عليه واضحة في الصور التي قدمها لنا الشعراء ، فعندما شعر امرؤ القيس بالموت تصور ابله قائمة لم تذق شيئاً من الطعام مشاركة إياه في مصابه )<sup>(٤)</sup> . قال<sup>(٥)</sup> :

على قُلص تظلُّ مقلداتٍ      ازمتهنَّ ما يعدفنَ عودا

ويدعي الأعشى أن هوى قلوبه بعض هواه تنحرف عن ينحرف ويقصد الذي يقصد تعاف اقواماً وحياضاً وتروى - كسيدها - بماء هوذه بن علي<sup>(٦)</sup> :

تجانف عن جل اليمامة ناقتي      وما قصدت من أهلها لسوانكا

### المّت بأقوام فعافت حياضهم      قلوصي فكان الشرب منها بمائكا

ويمضي الشاعر يرسم لناقته مشاهد كثيرة مختلفة لا يتسع المقام لحصرها هنا ، وفي كل حديث يدل على مراقبة شديدة لهذا الحيوان الذي ألفه في حله وترحاله وأنس القرب منه على كل حال . ويكشف عن تجارب حية مع انفعالاته وأحاسيسه وقد يلتحم الشعور فينوب الشاعر عن ناقته في أحيان كثيرة ويستترسل في التعبير ويطغى حتى يصبح التعبير دالاً على حالة وجدانية واحدة تصدق على كل من الشاعر وناقته ( فهي مثله لا تكاد تنتهي بها ظلمة الرحيل إلى الممدوح حتى ينكشف عنها الضر وتبدد من نفسها المتاعب )<sup>(٧)</sup> :

### فكأنها لم تلق ستة اشهر      ضراً إذا وضعت إليك جلالها<sup>(٨)</sup>

وكان من الطبيعي ان ينشأ هذا التعاطف بين العربي وناقته لاعتبارات كثيرة لعلها تعود في أصولها القديمة إلى جذور بعيدة تتصل بالموقف القدسي منها في رسالة النبي العربي<sup>(٩)</sup> صالح ( عليه السلام ) وما تبعه من ترسيخ هذه المسحة القدسية وتأكيدها كرد فعل عنف عن التخلي عن هذا الاعتبار الديني اذ كان العقاب الشديد الذي نزل بسببها في قوم صالح ومن أثار ذلك ما نراه في بعض معتقداتهم في الناقة اذ حرّموا ذبح البهيمة<sup>(١٠)</sup> وركوبها ومثلها السائبة<sup>(١١)</sup> والوصيلة<sup>(١٢)</sup> . اما البلية<sup>(١٣)</sup> فترك مربوطة لا يتعرضون لها بشيء وتبقى هكذا إلى ان تموت ثم ما عُرف عن الحلف بها دون سائر الحيوانات الذي كان معروفاً عندهم كل ذلك قد يجعل الشاعر الجاهلي ينظر إليها هذا النظر المتعاطف ويقف منها هذا الموقف الإنساني الذي يصل حد ( فهمه خطرات نفسها وتفهمه لهمومها اذ يخلع عليها من نفسه فيجعلها ذات مشاعر إنسانية )<sup>(١٤)</sup> ويضيق المقام للتفصيل في هذا الباب .

### ثانياً: الاحساس بالفرس:

ولا يقل الفرس حضوراً في وجدان الشاعر الجاهلي عن حضور الناقة فهو الآخر رسم له لوحات عديدة فصلّ فيها الحديث وتوّع الألوان ودقق التجسيد حتى تخاله رساماً ماهراً يقيس الأبعاد ويحدد المواقف ويصنغ الألوان ( ويذهب الشاعر الجاهلي كل مذهب في تفصيل صورته ويظهر دائماً في شكل مثالي كأنه النموذج الذي خلقت الخيل على مثاله )<sup>(١٥)</sup> ( وكانوا يحرصون على إبراز الصورة الكاملة الدقيقة لهذا الحيوان ليظهروا عظمة فائدته وشدة حاجتهم إليه ، ولم يقفوا عند هذه الأوصاف الخاصة وانما حاولوا ان يصوّروا لنا الجوانب الداخلية لهذا الحيوان لأنها كانت وثيقة

الصلة بالحاجة التي يريدونها منه...<sup>(١٦)</sup> . حتى إذا كبر وبلغ مبلغ الرجال جعل وقايته كوقاية نفسه وكرامته مرهونة بكرامته وكأنه واحد من القوم له ما للقوم وعليه ما عليهم . يقول:

بني عامر ان الخيول وقاية      لأنفسكم والموت وقتٌ مؤجّل<sup>(١٧)</sup>  
متى تكرموها يكرم المرء نفسه      وكل امرؤ من قومه حيث ينزلُ

اما جمال مظهره ففيه فتنة لعين الناظر وأسرُّ للألباب حتى يكاد البصر يثبت عنده ولا يحيد عنه طرفه عين لما له من سحر يستجلب الأنظار ويستميل القلوب يقول امرؤ القيس في جمال فرسه :

ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه      متى ما ترقّ العين فيه تسفل<sup>(١٨)</sup>  
فبات عليه سرجه ولجامه      وبات بعيني قائماً غير مرسل

وكانه ينزع عن معنى إسلامي يؤكد صدق دعوى الشاعر في ما يراه في فرسه ويؤيد إطالة النظر والتأمل في بديع خلقته فلطالما جاءت دعوى القرآن الكريم إلى النظر في بديع خلقه الحيوان وفيما جاء من ذلك التأمل في جمالها الخارجي قصد العظة والاعتبار .قال سبحانه وتعالى ذاكراً الخيل والبغال والحمير: ( وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تُسْرِحُونَ )<sup>(١٩)</sup> . وهذا سر مكنون من أسرار الجمال في الأشياء يخلعه الشاعر على فرسه ليدل بذلك على عميق إحساس به . وهكذا يُجلي الإحساس بالحيوان معاني للجمال مغفولٍ عنها وهي في فرس امرؤ القيس فتون في المظهر وإبداع في الخلقه وجمال يقصر الأبصار ويأسر الألباب حتى لا يجد الناظر إليه معنىً للجمال يستكمل فيه إعجابه وفتونه في غيره من الأشياء فيصرف الطرف عنه إليها . اما الملازمة له فتبلغ حد الضنن به عن ان يُرسل ويُهمل ويبتدل كغيره من الحيوان .وفي حومة الوغى وجلبة القتال وانهماك الفارس البطل في مقارعة الأعداء لا ينسى ان يحنو على رفيق دربه ويتفحص حقيقة مشاعره وفاءً لصبره وثباته فيقول عنتره ذاكراً فرسه وهو في ضنك هذا الموقف ونائباً عنه في التعبير عن عواطفه وخلجات نفسه :

فازور من وقع القنا بلبانه      وشكا الي بعبرةٍ وتحمحم<sup>(٢٠)</sup>  
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى      ولكان لو علم الكلام مكلمي

( وهنا يخلع عليه صفة من ابرز الصفات الإنسانية هي صفة ( البكاء ) ونحس ما يقوم بينهما من مودة وتراحم ، وترحب نفس عنتره فتسع ذاته وذات جواده ويمحي جدار العجمة بينهما او يكاد ثم يقف ترجماناً بيننا وبينه )<sup>(٢١)</sup> .

**ثالثاً: الإحساس بالحيوان الوحشي (الثور والحمار والبقرة والذئب) :-****١- الإحساس بالثور والحمار والبقرة :-**

ولم يقتصر هذا التصوير النفسي والوجداني على حيوانه الأليف وحده بل تجاوز ذلك إلى الحيوان الوحشي فدخل عالمه الداخلي وتأمل حياته الخاصة فصور دقائق انفعالاته وعواطفه وعبر عن عميق إحساساته وهو اجسه ويتجلى ذلك واضحاً في مواقف كثيرة للثور الوحشي والحمار الوحشي وأثناء من جهة والصراع الذي يشتد بينها وبين كلاب الصائد من جهة أخرى . ومثلما دقق الشاعر النظر والتأمل في المظهر الخارجي لحيوانه الأليف هاهو يدقق النظر ويتأمل مظهر الحيوان الوحشي فيرسم له صوراً بديعة مختلفة متحركة وساكنة فصوره قبل المعركة ووصفه في اثناها وفيما صور للحيوان الوحشي صور الثور الوحشي كما رآه عياناً فبدأ للنظر ابيض اللون كالثوب اليماني او الكوكب المضيء اسفع الوجه كأن به ديباجاً ، موسى القوائم كأن ارنديجاً<sup>(٢٢)</sup> بأكرعه :

له جدّد سوّد كأن ارنديجاً      بأكرعه وبالذراعين سندس<sup>(٢٣)</sup>

ولم يغفل قرنه فوصفه بالصلابة والسواد والطول والحدة<sup>(٢٤)</sup> ووصف بريق وجهه وسواد عينيه . قال المتقّب :

كأنما ينظر في برقع      من تحت روق سكّب المذود<sup>(٢٥)</sup>

ووصف الاعشى انفه الافطس ووقف بشر يصف عرقه وذيله ورجليه واذنيه . وما اكثر ما وصف الشعراء ثيرانهم بالضمور والجوع والنشاط والتوجس والذعر والإحساس بالخطر وكأنهم يصورون بذلك عن ريشة فنان رسام بارع لا يترك للمشاهد صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها بأمانة الفنان الواقعي في التعبير عن مظاهر الحياة المختلفة . حتى اذا وفى حق إحساسه من التصوير الخارجي الدقيق راح يكشف عن مكونات حيوانه الوحشي فصور غلمته وغيرته على انثاه كما فعل لبيد في التعبير عن غيرة الحمار الوحشي ( فلمس بإحساس الفنان الأصيل اعمق مشاعر النفس وأخفاها فصور غيرته القاتلة وحرصه العجيب على انثاه غيرة بلغت الا يطيق رؤية ذكر آخر سواه حرصاً دفع به إلى ان ينفي اولاده الصغار خشية ان تغلبه حين تشب ثم التمس له العذر بعد ذلك )<sup>(٢٦)</sup> . قال<sup>(٢٧)</sup> :

أذلك ام عراقيّ شتيم      ارنّ على نحائص كالمقالي

نفي جحشاتها بجماد قو      خليط ما يلام على الزبال

ويصور لبيد فيما يصور من خواطر هذا الحيوان الشَّيق وما يدور في داخله من انفعالاتٍ غيرَةً على انثاه فيقول:

أو مُلمع وسَقَت لأحقبَ لاحه      طرد الفحول وضربها وكدامها<sup>(٢٨)</sup>  
يعلو بها حُذب الأكام مسجَح      قد رابه عصياتها ووحامها  
بأحزة الثلبوت يرباً فوقها      ففر المراقب خوفها آرامها

الا ان الموقف يتأزم ويبدو اكثر ضنكاً عندما يلجأ الشعراء الى تصوير عواطف الأمومة وما يتبع ذلك من عمق الإحساس والصبر على مخاطر الحياة المترصدة لهذه الام الثكلى في كل حين ومكان . فكان الدخول الى عالم البقرة الوحشية وما ألمَّ بها من خطب شديد مروّع يمثل موقفاً وجدانياً مؤثراً عند الشاعر الجاهلي وفي هذا يقول لبيد مصوراً حالة بقرةٍ وحشية تكلّى<sup>(٢٩)</sup> :

افتلك أم وحشية مسبوعة      خذلت وهادية الصوار قوامها  
خنساء ضيعت الغرير فلم ترم      عرض الشقائق طوفها وبغامها  
لمعفر قهدٍ تنازع شلوه      غبس كواسب لا يمن طعامها  
صادفن منها غرةً فأصببنا      ان المنايا لا تطيش سهامها  
باتت واسبل واكف من ديمة      يروي الخمائيل دائماً تسجامها  
يعلو طريقة متنها متواتراً      في ليلة كفر النجوم غمامها  
تجتاف اصلاً قالصاً متبذراً      بعجوب انقاء يميل هيامها  
وتضيء في وجه الظلام واسفرت      بكرت تزل عن الثرى ازالها  
علت تردد في نهساء صعائدٍ      سبعاً تؤماً كاملاً أيامها

ولم تفرغ الام من البحث عن ولدها حتى تدهمها كلاب الصائد وقبل ذلك يدهمها مطر شديد يلجؤها الى جوف شجرة فتضطر للدفاع عن نفسها وتدور معركة عنيفة بينها وبين الكلاب<sup>(٣٠)</sup> :

حتى اذا ينست واسحق حالق      لم يبيله ارضاعها وفطامها  
فتوجست رزّ الانيس فراعها      عن ظهر غيب والانيس سقامها  
فغدت كلا الفرجين تحسب انه      مولى الخلافة خلفها وأمامها  
حتى اذا ينس الرماة وارسلوا      غضفاً دواجن قافلاً اعصامها  
فالحقن ، واعتكرت لها مدرية      كالمهربية حدها وتمامها  
لتذودهن وايقنت ان لم تذذ      أن قد احمّ مع الحتوف حمامها  
فتقصدت منها كساب فضرجت بدم      وغودر في المكر سخامها

وتسفر المعركة عن هزيمة الكلاب ورجوعها خائبة الى صاحبها أما البقرة فظلت تدافع عن نفسها واكتفت بأن تريح الحياة بعد ان أيقنت بهذا الخطر الدايم الذي يقتضي رده بكل ما تستحق الحياة من الحفاظ عليها. ولم تُرى بسط الشاعر لبيد هذا الموقف وفصل التعبير عنه؟! لقد ذهب بعض الدارسين الى الربط بين موقف الشاعر من الحياة والوجود وهذا الموقف الذي يكتنفه من الشبه بواقع حياة الشاعر وما مني به من الإخفاق في تجربة عاطفية مع صاحبتة نوار التي اظهر في الأبيات التي بعدها جفاءها وإعراضها عنه<sup>(٣١)</sup>:

او لم تكن تدري نوارُ بأنني      وصَّالُ عقد حبالٍ جذامها  
ترآك أمكنةً اذا لم أرضها      او يعلّق بعض النفوس حمامها

وهكذا قد تحمل تجارب الشعراء الذاتية على تقمّص الحيوان والانطلاق من عالمه المكشوف للتعبير عما يدور في عالمهم من أسرار او التنفيس عنها. وهو مذهب رمزي يدل على قدرة فنية في توحيد الحقائق وتوظيف مشاعر الحيوان كمعادل موضوعي يفزع إليه الشاعر في مواقف وجدانية خاصة كما فعل لبيد في الأبيات المذكورة اذ أسهب الحديث في عواطف الحمار الوحشي وما أحدثته الغيرة على أنثاه من سلوك جديد. ومثله فعل مع البقرة الوحشية التي فقدت ولدها فبقيت تتردد سبعة ايام كاملة تلح على ان تعثر عليه ولم تكلّ وتيأس حتى أحست بخطر جديد فوقفت أمامه بحزم لا يلين . وهكذا (فان لبيد مثلاً الإنسان من خلال البهيمة وانه اكتشف التماثل بين طبائع الإنسان وما يضاهاها في الحيوان وهي فيه اشد قوة وعنفاً لأنها عمياء متمادية لا قبل حتى الانسان بها)<sup>(٣٢)</sup>. لقد أثر الشاعر لهذه القصة بالتفصيل فتناول ثلاث حقائق متصلة اتصالاً مباشراً بواقع حياته فذكر غيرة الحمار ليدل على ميله الى نوار وذكر الموت (المنية) ليدل على الفقد - فقد الاحبة - وذكر المطر النازل بشدة في لحظة التذبذب وغياب الأهبة والاستعداد لمواجهة الأخطار ليدل على ترصد الأقدار ووقوعها بغتة اذ لا يعلم الإنسان أين ومتى يأتي القدر ليأخذ حذره ويستعد للمواجهة - إن كانت تُجدي المواجهة - . وبذلك يربط بينه وبين الموقف الحزين هذا ليدل على نوع مما يجري في نفسه من انفعالات منطلقاً من الحديث المفصل في ( وصف حال حمار الوحش تفصيلاً يطلعك على نوع مما يجري بقلبه ( أي الحمار ) من انفعالات الغيرة والحرص على انثاه حرصاً لا يقاربه فيه الا الإنسان وهو إذ يفعل ذلك يتتبع تلك الانفعالات النفسية الطارئة على الذكر في حالته هذه تتبعاً دقيقاً وافياً ويصف من حاله وأحوال أنثاه ما لا مرأى في ان عناصره مستمدة من



احساسات صاحب الشعر نفسه وتجاربه. ولو كان محل هذا الحمار إنسان لما استطاع الشاعر ان يذهب في تحليل حرصه على أنثاه اكثر من ذهابه في تحليل مشاعر الحمار<sup>(٣٣)</sup>. ثم يفرغ الى وصف البقرة التي أضاعت ولدها بالأسلوب نفسه في تصوير مشاعر ألام التكللى التي لا تعبأ بالصبر على تعب المسير والتطواف هنا وهناك وربما لم تذق شيئاً من القوت ولا تحس بالزمن وفيما هي على هذه الحال إذ تهدد حياتها بالفناء فتصبح بين أمرين أحلاهما مر - بين ان تبقى في عناء البحث وملازمة أشلاء وليدها الذاهب وبين ان تظفر بالحياة التي هي اعمق واكثر من كل شيء ( وتلبث هناك برهة موزعة بين مطلب الحياة ، ومطلب الأمومة في حيرة من أمرها أتحمي نفسها ام تبحث عن طفلها؟ ولو وضع الشاعر موضع هذه البقرة انساناً فلقي ما لقيت البقرة في تلك اللحظات القصصية الكبرى ، لما وجد ما يقوله في شعره اكثر مما قال )<sup>(٣٤)</sup>.

## ٢- الإحساس بالذنب :

وتكثر صور التعبير عن مثل هذه القصص الحزينة في الشعر الجاهلي وقد حرص الشعراء على تسجيلها بجزئياتها تسجيلاً دقيقاً يدل على أمانة الشاعر ووفائه لما يحسه ويراه ويتأمله في بيئته الصحراوية القاسية إذ لا بد من التكيف معها على كل حال وقد يبلغ التكيف هذا معنى التدجين كما هو الحال في حياة الصعلوك التي لا تختلف من حيث مقاساة أهوال الطبيعة عن حياة الحيوان الهائم على وجهه في تلك الصحراء الممتدة فتنشأ علاقة بينهما أشبه ما تكون بالمواطنة الصالحة وحسن الجوار - إذا صح التعبير - وهذا ما فعله الشنفرى مع الذئب حين صورّ مكابته الجوع ومقاساته أهوال الطبيعة وكأنه ينزع عن أخلاقه هو التي فرضتها طبيعة حياته كصعلوك. ( ومن الطبيعي ان يكون حديث الصعاليك عن الذئب حديث المطلع العارف بكل ما يحيط به ، لتقارب السبيل الذي يسلكه كل منهما في البقاء والاستمرار ولا غرابة بعد ذلك اذا سمعنا عن الشنفرى بأنه يؤثر صداقة الذئب وغيره من الحيوان لأنها احرص على القيم وارهف احساساً )<sup>(٣٥)</sup> يقول:

ولي دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جبال<sup>(٣٦)</sup>  
هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يُخذل

( فأياً تكون تلك التجربة التي حدثت به الى ان يؤثر صحبة الذئب والنمر والضبع. ولقد كان ملماً بطبائعها يصفها فكأنه الفها وألفته. لا شك ان وراء ذلك شعوراً بالضميم والنكد في القيام بين قوم

يذلونه ويسخرونه ويتخلون عنه في المقام الحرج<sup>(٣٧)</sup>. فكان ما كان بينه وبين قومه من العداة وبينه وبين الذئب من الإخاء. وتلك فلسفة الشاعر الصعلوك الذي وجد معادلاً اجتماعياً عن قومه فتألفه وتكيف معه فصار الى ان يكون عنده أليفاً يستأنس به اقرب منه الى ان يكون وحشياً ينفر منه. ولم لا؟! . ألم يكن كلاهما رهيناً مكابدة مع الطبيعة القاسية وعرضة لتقلب الأحوال وحليف عوز وجوع وضنك؟! الأمر الذي جعلهما يتفقان في كثير من الخصال التي تقرب بينهما وتوحد بين احساسيهما. ولما كان الأمر كذلك فقد عظم إحساس الشاعر بمعاناة صاحبه فمضى يدون ما يحسه في هذا الحيوان مرةً وينوب عنه في التعبير عما يحسه مرةً أخرى. وهكذا يبدو كل شيء في عالم الحيوان الجاهلي ينذر بالفقد ويبعث على الحذر واليقظة ويدعو الى الحزن والأسى فالطبيعة القاسية لا تؤمن على حال والأعداء يترصدون ويترصدون ومشاهد الصيد وما يصحبها من صراع مرير من اجل البقاء كل ذلك نذير بالتحول والتقلب وفقدان الثقة بحياة أمنة مطمئنة. وحرى بمن يعيش مثل هذه الحياة ان يبقى جذراً متيقظاً شاخص البصر أمام أهوال تلو أهوال ما بين هزيمة وانتصار وفراق ووصال وجذب وخصب وحياة وموت يقف الشاعر الجاهلي متأملاً يتجاذبه شعورا الحزن والفرح - الحزن الذي تحتمه طبيعة الحياة القاسية والفرح الذي يتوق إليه يتنازع عانه حقيقة الحياة ويسهمان في صيرورتها وحمية استمرارها وبقائها. ولم يكن بعيداً عن وعي الشاعر الجاهلي أن عالمه هذا الذي يعيش فيه على ما فيه من أحزان لا يخلو من ومضات فرح مشرقة تحملها مِبشّرات الرياح بين الحين والحين فتأتي بالغيث المحيي والباعث لأرضه خصباً ونماءً وحياةً جديدةً. اما عالم الحيوان المائل امام عينيه والداخل عليه بأحاسيسه ووجدانه فمع ما فيه من شقاء وبؤس ومكابدة وصراع مميت فإنه يشرق بين الحين والحين بالأمل الباعث في لحظة الظفر بغنيمة والانتعاش بخصب الطبيعة والانتصار على عدو متربص فإذا بهذا الحيوان الشقي ينعم بنشوة المنتصر فرحاً مُغرداً يردد أناشيد السرور، وقد صورته الشعراء كذلك في مواطن كثيرة. فهذا زهير يصف مشهد الحمار مع أتانته وهما يردان مياه صافية لا يكدر صفوها صياد أو سواه وقد ملأت الغبطة والحبور صدر الحمار وأخذته النشوة فطفق يغرد بين تلك المياه أماناً مطمئناً :

يغرد بين خدم مفرطاتٍ صوافٍ ما تكررُها الدلاءُ<sup>(٣٨)</sup>

( ونظفر في بعض قصائد ليبد بهذه النهاية الراضية الآمنة فتزد الأذن الماء جماعة تكسر به غلة اجوافها ويرفع الحمار عقيرته بالغناء فيمتد به النفس او يتقطع وتردد الصوى هذا الغناء العابق بالبهجة والفرح ويعود الحمار وأنته الى جو جديد من السعادة والمرح )<sup>(٣٩)</sup> . يقول :

فأوردها العراك ولم يذدها ولم يُشفقْ على نقص الدخال<sup>(٤٠)</sup>  
يفرّج بالسنانك من شريب يروع قلوب اجواف غلال  
يرجع بالصوى بمهضّات يجبن الصدر من قصب العوالي

( ووصف امرؤ القيس تغريده في الأسحار فرآه كشارب يغني ويطرب الشرب المتنادمين ويهز اعطافه سكرًا ونشاطًا )<sup>(٤١)</sup> يقول:

يغرّد بالأسحار في كل سدفة تغرّد مياح الندامى المطرب

على ان مواقف الحزن والأسى في حياة الحيوان تبقى هي الأكثر والأدعى إلى تعميق الإحساس بالفقد ، فما الفرح العابر هذا سوى فرح قلق مُبطن بالخوف من القدر والإشفاق من المجهول وتوقع المصير المشؤوم الذي ينتظره! . هو فرحٌ ولكنه في الوقت ذاته حزنٌ مع وقف التنفيذ!.

### الخاتمة :

حاولت في هذا البحث الصغير ان اتوصل الى حقيقة تكشف سر الوفاء - وفاء الإنسان الجاهلي - لإحساسه بما ومن حوله في بيئته القاسية فسلطت الضوء على إحساسه بالطبيعة الحية في شعره خاصة . وقد اكتفيت بالحديث عن إحساسه بالحيوان أليفه ووحشيّه فوجدت الشاعر الجاهلي ذا نظرة ثاقبة وتحليل عميق لما يحسه ويراه في الحيوان فقد صور بريشته الأدبية المرهفة صفات حيوانه من حيث المظهر الخارجي فلا يكاد يغادر كل الذي عليه عينه في الحيوان حتى يسجلها في شعره كما في حديثه عن الناقة التي لم يقف عند التصوير الخارجي لها وإنما تجاوز ذلك الى تصوير عالمها النفسي فترجم انفعالاتها وما يدور في داخلها من خطرات وهواجس . ولا يقل الفرس نصيبا في وجدان الشاعر عن نصيب ناقته فقد عبر عن إحساسه به اليفاً الى حد التعلق به حبيبا .

اما جمال مظهره الخارجي ففيه فتنة لعين الناظر وأسر للبه حتى ان البصر يكاد يثبت عنده ولا يحيد عنه كلما نظر اليه لما له من سحر فتان وجمال يأخذ بمجامع القلوب . وكأنه ينزع عن معنى اسلامي يؤكد صدق دعوى الشاعر الى ما يراه في فرسه ويؤيد إطالة النظر والتأمل في بديع خلقتة فلطالما جاءت دعوى القرآن الكريم الى النظر في بديع خلقة الحيوان وعجيب اتقانه ، وفيما جاء من

ذلك التأمل في جمالها الخارجي قصد العظة والاعتبار ، قال سبحانه تعالى ذاكراً الخيل والبغال والحمير : ( وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ) (النحل:٦) .

ذا سر مكنون من اسرار الجمال في الاشياء يخلعه الشاعر على فرسه ليبدله بذلك على عميق احساسه . وهكذا يجلي الاحساس بالحيوان معاني للجمال مغفول عنها وهي في الفرس عند الشاعر الجاهلي فتون في المظهر وأبداع في الخلقة وجمال يقصر الابصار ويأسر الالباب . ولا ينسى ان يحنو على رفيق دربه المصاحب له في حله وترحاله فيتحقق حقيقة مشاعره وفاءً لصبره وثباته في حومة الوعى وإخلاصاً لدفاعه المستميت عن فارسه وصاحبه ، ومثلما دقق الشاعر النظر وتأمل في مظهر حيوانه الأليف وعبر تعبيراً اميناً عن احساسه بعالمه النفسي الداخلي راح يدقق النظر والتأمل في مظهر الحيوان الوحشي فرسم له صوراً بديعة متحركة وساكنة فصوره حين يكون وادع البال ساكن النفس وصوره حين يكون هائجاً مستثاراً في صراعه مع عدوه من جانب ومع الطبيعة القاسية من جانب اخر .

ثم لم يكتف الشاعر الجاهلي بذلك كله حتى رأيناه يعبر عن احساس يبدو عجبياً وغريباً في الطباع البشرية وهو إنسنته الطبيعة الحية القاسية واستجلاء معاني الجمال فيها وهذا ما تلقاه صريحاً عند الشاعر الجاهلي الصعلوك الشنفرى في لاميته المعروفة الذي سطر فيها من الخصال الإنسانية والمعاني الإسلامية في الذنب ما عز ان تجده عند الإنسان المتحضر اليوم فذكر صدق سريرته ووفاء لعشيرته وقد حرص ان يعيش معه بديلاً يستعويض به عن ابناء جنسه من البشر فأثر صداقته ورغب في عشرته الى حد التعبير عن المواطنة الصالحة إياه - اذا صح التعبير- .

هذا هو الإنسان الجاهلي في نظراته الثاقبة الى الأشياء وإ احساسه العالي بها يبدو صريحاً في شعره الذي عبر فيه عن احساسه بالحيوان اليفه ووحشيه اقرب الى روح الإسلام والحضارة منه الى الجاهلية والتخلف .

وان مثل هذه المعاني الشفافة والخصال الإسلامية الكريمة في شعر الجاهليين تذكر بالمفاهيم الإسلامية الأصيلة التي ينبغي ان ترتقي بإ احساس المسلم الى هذا المستوى الشفاف من الإيمان بالغيب والنظر الثاقب الى الأشياء واستجلاء معاني الخير والجمال المغفول عنها اليوم فيها . وهذا ما يدعو الى ان نتأمل طويلاً لنعرف مكانة هذا الشاعر الجاهلي الضال !! الذي سبق على ضلاله وجاهليته الى ما تخلف عنه الإنسان المتحضر على ما عنده من الهدى والتحضر والتقدم !!! .

الهوامش

- (١) شعر المثقب العبدى ص ٣٩-٤٠
- (٢) ديوان المتلمس ص ٦٠ .
- (٣) ديوان طرفة بن العبد ص ٢٨ ، شرح المعلقات السبع ص ٥٥ .
- (٤) الطبيعة في الشعر الجاهلي ص ١٠٣ .
- (٥) ديوان امرئ القيس ص ٨٧ .
- (٦) ديوان الاعشى ص ١١ .
- (٧) الرحلة في القصيدة الجاهلية ص ٨٣ .
- (٨) ديوان الأعشى ص ٣ .
- (٩) النور المبين في قصص الانبياء والمرسلين ص ١٢٢ .
- (١٠) البحيرة : هي الناقة التي ولدت خمسة ابطن خامسها انثى فيشقون اذنها وتترك طليقة لا تدبح .  
( راجع تفسير الامثل المائدة ١٠٣ ) .
- (١١) السائبة : هي الناقة ولدت اثني عشر بطناً فيطلقونها سائبة ولا يمتطيها احد . ( راجع تفسير الامثل المائدة ١٠٣ ) .
- (١٢) الوصيلىة : هي الشاة التي ولدة سبعة ابطن وقيل انها التي تلد التوائم فيحرمون ذبحها (راجع تفسير الامثل المائدة ١٠٣) .
- (١٣) البلية : الناقة التي تربط عند قبر الميت وتترك هكذا حتى تموت .
- (١٤) الصورة في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري ص ٥٣ ، علي البطل .
- (١٥) الصورة في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري . ص ١٥٥ .
- (١٦) الطبيعة في الشعر الجاهلي ص ١١٨ .
- (١٧) ابو عبيدة الخيل / ١٢ .
- (١٨) ديوان امرئ القيس ص ٥٩ ، شرح المعلقات السبع . ص ٣٧ .
- (١٩) النحل ، الآية (٣) .
- (٢٠) ديوان عنتره ص ٣٠ ، شرح المعلقات ص ١٥٢ .
- (٢١) الرحلة في القصيدة الجاهلية ص ٣٧١ .

- (٢٢) الارندج او اليرندج : الجلد الاسود تعمل منه الخفاف .
- (٢٣) ديوان المتلمس . ص ٢٢٨ ، الجُدد : جمع الجُده طريقة كل شي وعلامته وعن الفراء الجُدد : الخُطط والطرق تكون في الجبال خُطط بيض وسود .
- (٢٤) ديوان المتلمس ص ١٤ .
- (٢٥) شعر المثقب العبدي ص ١٠ .
- (٢٦) الرحلة في القصيدة الجاهلية ص ١٣٦ .
- (٢٧) شرح ديوان لبيد ص ٨١ وما بعدها .
- (٢٨) المصدر نفسه .
- (٢٩) المصدر نفسه .
- (٣٠) شرح ديوان لبيد ص ٣٠٨ وما بعدها . شرح المعلقات السبع ص ١٠٣ وما بعدها .
- (٣١) شرح ديوان لبيد ص ٣١٣ .
- (٣٢) في النقد والادب ص ٤٢٧ .
- (٣٣) تاريخ الشعر العربي ص ٩٦ ، البهيتي .
- (٣٤) تاريخ الشعر العربي ص ٩٧ ، البهيتي .
- (٣٥) الطبيعة في الشعر الجاهلي ص ١٦٥ .
- (٣٦) اعجب العجب / ١٦ - ١٨ .
- (٣٧) في النقد والادب ص ٣٦٩ .
- (٣٨) شرح ديوان زهير ص ٦٩ .
- (٣٩) الرحلة في القصيدة الجاهلية ص ١٢٩ .
- (٤٠) شرح ديوان لبيد ص ٨٦ - ٨٧ ، ٨٩ .
- (٤١) الرحلة في القصيدة الجاهلية ص ١٣٥ .

المصادر والمراجع

- (١) القرآن الكريم .
- (٢) الامثل في تفسير كتاب الله المنزل ، آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ، الطبعة الثانية ، بيروت لبنان ١٤٣٠هـ
- (٣) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ، نجيب محمد البهبيتي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٧ هـ ، ١٩٦٧ م .
- (٤) الخيل: ابو عبيدة معمر بن المثنى التميمي ، تحقيق محمد عبد القادر احمد ، دار نهضة مصر ، تاريخ الإصدار ، ١٩٨٦ .
- (٥) ديوان الاعشى ، تحقيق لجنة الدراسات في دار الكتاب اللبناني بأشراف كامل سليمان ، الطبعة الاولى ، دار الكتاب اللبناني .
- (٦) ديوان امرئ القيس ، دار صادر ، بيروت لبنان ، الطبعة الاولى .
- (٧) ديوان بشر بن ابي خازم ، تحقيق عزة حسن ، مطبوعات مديرية احياء التراث القديم ، وزارة الثقافة والإرشاد ، دمشق ، ١٩٦٠ م .
- (٨) ديوان شعر المثلث ، رواية الابرم وأبي عبيدة عن الأصمعي ، عني بتحقيقه وشرحه حسن كامل الصيرفي ، ١٩٧٠ ، معهد المخطوطات العربية .
- (٩) ديوان طرفة بن العبد ، دار صادر بيروت لبنان ، ١٣٨٠ هـ ، ١٩٦١ م .
- (١٠) ديوان عنتره ، دار صادر بيروت لبنان ، ١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٦ م .
- (١١) الرحلة في القصيدة الجاهلية ، وهب رومية ، الطبعة الثالثة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٢ .
- (١٠) شرح لامية العرب ، المسمى بأعجب العجب ، لأبي البقاء عبد الله عبد الحسين العكبري ، تحقيق وتقديم د. محمد خير الحلواني ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت .
- (١٢) شعر المثقب العبدى تحقيق الشيخ محمد حسين آل ياسين ، مطبعة لمعارف ، بغداد ، ١٣٧٥ هـ ، ١٩٥٦ م .
- (١١) شرح ديوان لبيد حقه وقدم له د. إحسان عباس ، التراث العربي ، الكويت ، ١٩٦٢ .

- ١٢) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، ابو العباس احمد بن يحيى بن زيد الشيباني ، المسمى بثعلب ، القاهرة، ١٩٦٤، الدار القومية للطباعة والنشر .
- ١٣) شرح المعلقات السبع ، الزوزني ، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الثانية ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٥ م .
- ١٤) الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، علي البطل ، دراسة في أصولها وتطورها ، دار الأندلس ، الطبعة الأولى .
- ١٦) الطبيعة في الشعر الجاهلي ، نوري حمودي القيسي ، الطبعة الثانية ، عالم الكتب للطباعة ، ١٩٨٤ .
- ١٧) في النقد والأدب ، إيليا حاوي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطبعة الرابعة .
- ١٨) المفضليات ، تحقيق احمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون ، دار المعارف ، مصر .
- ١٩) النور المبين في قصص الانبياء والمرسلين السيد نعمه الله الجزائري ، منشورات ذوي القربى، قم المقدسة ، الطبعة الرابعة ، ١٤٣٠ هـ .